مجلة علوم التربية

دورية مغربية متخصصة

ملف خاص:

المخطط الاستعجالي للتربية والتكوين (2009-2011)

العدد الثاني والأربعون- يناير 2010

قراءة في الخطاب التربوي

لحسن وزين أستاذ التعليم الابتدائي بمجموعة مدارس تغزوت تنغير

أولا تموجات الفكر العربي المعاصر

ان الكثير مما يسمى الفكر العربي في مختلف المجالات الثقافية والمعرفية لاتربطه اية علاقة حقيقية تفاعلية بالواقع العربي. لسبب بسيط في ظاهره لكنه معقد في عمقه الابستمولوجي و الاجتماعي هو انه تكون تحت اكراهات اجتماعية تارخية ومعرفية تراثية ومعاصرة فالكثير من هدا الفكر فضل ركوب الموجات الثقافية الغربية بدون تمثل اصيل وتاسيس علمي نظري انطلاقا م ن رؤيةواعية بالخلفيات الفلسفية والابستمولوجية والاديولوجية لكل جديد في الفكر الغربي. فمند الصدمة الاولى في القرن التاسع عشر والنزعة التوفيقية الغيبية بتجليات مختلفة سلفية و علمانية تحكم المنطق الداخلي لسيرورة الفكر العربي. وفي كثير من الاحيان سادت الانتقائية بين التراث المترهل الاسس والرؤية وتيارات الفكر الغربي كالوجودية الماركسية و البنيوية...(ان فكر التنوير الدي هو صياغة لبنية دهنية جديدة ومقدمة لتحول حضاري كان وليد معارف جديدة انبثقت عن الثورة و الاكتشافات العلمية كدلك فكر نقد عقل الحداثة انبثق عن تغيرات في علاقات الواقع المادي وفي ثورة المعلومات والتكنلوجيا. والفكر النقدي في الحالتين وليد تحولات مادية مجتمعية في العلوم والعلاقات....)[1]

وها نحن اليوم في الالفية الثالثة بعد مسار تاريخي طويل وعنيف لم نراوح المكان نفسه حيث عاد سؤال النهضة والتنوير ليحتل الساحة الثقافية في الندوات والكتب والمجلات. انها نفس الدائرة المتخلفة التي لم تنتج الاهزائم متوالية في الحياة والفكر وكان الواقع العربي تحكمه قوى غيبية سحرية لم تقرر بعد

فك سراحه ليواصل صيرورته المجتمعية والانخراط بفاعلية في العصر من موقع المساهم المنتج. وكاننا نعيش الوجه الاخر للسؤال الخلدوني في علم التاريخ وهو يدرس دوران تطور الدولة بين النشوء التطور ثم الازدهار الى الانهيار بشكل لولبي لاينتهي الى افق مفتوح مستقبلي. هده احدى الاجابات عن السؤال المعقد الدي يؤرق المهدي منجرة حول سر صعوبة ولادة علم المستقبليات في الواقع العربي. فالعمران البدوي المتخلف ينتصر للعلوم الكشفية الخرافية على حساب العلوم الكسبيةدات الاساس العقلي التجريبي (هكدا يستشعر السؤال لحطات الازمة ويظهرنا على ان ما اصطلحنا عليه من تسميات بالنهضة والتنمية. .. لم يولد سوى صورا زائفة عن دواتنا فكل ما انتجناه يحكمه الانقسام واللاتوازن والازدواجية سواء في السلوك الفردي او الجماعي اوالاقتصاد والمعرفة)[2]. فالثقافة العربية تعيش الدوران نفسه الى درجة الغثيان لكننا سنقتصر في نقاشنا على طرح بعض الملاحظات النقدية حول الفكر التربوي المغربي المرتبط خصوصا بالمدرسة المغربية.

ثانيا ملاحظات نقدية

لم تهدا الضجة المفتعلة حول التدريس بواسطة الاهداف حيث صدرت كتب ومجلات الى جانب تنظيم ندوات في هدا الشان. حتى تبرأ الجميع من هده البيداغوجية واصفين اياها بابشع النعوت القدحية كالسلوكية الاجرائية القمعية التحريفية. .. هكذا تحت ضغط تحولات عالمية اقتصادية سياسية اجتماعية وعلمية تكنلوجية هرول الدين كتبوا بالامس عن بيداغوجية الاهداف نحو البيدغوجيات الجديدة الكفايات الفارقية الدكاءات المتعددة بالسرعة نفسها في ركوب الموجات بسلوكية دهنية اكثر تخلفا من سلوكية بيداغوجية الاهداف (انا ارفض ما يفعله غيري القفز من موقف الى نقيضه لكي اظهر بمظهر التجديد الفكر مسؤولية وليس موضة تتغير سنويا)[3]. ففي غياب عملية تشخيصية للواقع المغربي التربوي يتم التبني الاعمى والسلوكي للكفايات صحيح ان محمد دريج حاول ان يصف الكفابات بالجيل الثاني من بيداغوجية الاهداف بل تجرا اكثر في وصف الكفايات بالحركة التصحيحية بعد الانحراف الدي شمل المبادىء والتصورات.بجرة قلم ودون التمثل النقدي للجديد الغربي يتم حسم القناعات الاديولوجية لا المعرفية (والصفة الاساسية للايديولوجية هي انها تعتمد الايمان والاكتفاء الداتي. واللاتاريخية مع تجاوز خصوصيات الزمان والمكان ومن تم ترى في نفسها حقيقة منغلقة على نفسها ونهائية وترى النص حقيقة مطلقة وهو المرجع والحكم وينشأ له سدنته أصحاب الحل والعقد هدا على نقيض العقلية العلمية التي تتميز بالقدرة على النقد والانتاج والارتباط بحركة الفعل الانساني النشيط في الواقع الحياتي)[4]. ويتجلى دلك التبسيط في الرؤية والمقاربة في المشكلة التي يطرحها دريج حول حكاية التلميد الدي حصل على جائزة التقدير من ثانويته بعد انجازه في اختبار للتربية الوطنية والخلقية وتحريره لانشاء جيد في هده المادة الدراسية والدي سيتم القاء القبض عليه في اليوم الموالي لتوزيع

الجوائز بعد ان كسر زجاج احدى نوافذ الثانوية[5] حيث يعتقد ان تحديد الاهداف قادر على تصحيح هده الممارسة التي تتحكم فيها شروط وعوامل عديدة ومختلفة انطلاقا من طبيعة المجتمع ونوع السلط القائمة فيه كتنشئة ومناخ ثقافي اجتماعي وتفاعلات وعلاقات انسانية ومدرسية والافق الدهني والنفسي للطفل وقيمته ودلالاته في اطار المجتمع ككل اد ليس من السهولة الاعتقاد الايماني السحري في نشر الوهم والايهام بقدرة تحديد الاهداف او بالكفايات على تصحيح الانسان في شروط اجتماعية ثقافية مغايرة وتجاوز الكثير من الاسس الموضوعية المتحكمة في الظواهر واللجوء الى الاستنتاجات والتعميمات المسيئة للبحث العلمي والتناول المنهجي فمادا نقول عن الاطر المتعلمة التي شاركت في لوائح انتخابية يقودها اميون على صدر كل لائحة

فادا كان أجمل ما في الكفايات هو تجاوزها لسلوكية الاهداف. فلمادا سادت وترسخت هده الخلفية المعرفية الاتكالية والاتباعية في الفكر التربوي المغربي تجاه الغرب ؟ او بعبارة أخرى لمادا لم يخرج الفكر التربوي عن دائرة مثير استجابة؟ وكيف يمكن لهده البنية الدهنية أن تعتمد العقل في معالجتها للواقع والفكر. مادامت مولعة بركوب الموجات الثقافية الغربية عوض التفاعل الجدي بين العقل والممارسة الفكرية.

ادا كنا نطرح هده الاسئلة الصعبة. فاننا نهدف الى تعميقها حتى نكون في مستوى التحدي / الاستجابة. صحيح أن التحولات الاقتصادية والسياسية والعلمية التكنولوجية التي جاءت بها العولمة تضعنا أمام تحديات معقدة لدا لابد أن تكون الاستجابة في مستوى متطلبات المرحلة دون التسرع في ركوب الموجات لاهداف الشهرة وحب الظهور أو الدفاع عن مشاريع تربوية

فارغة المضمون والرؤية والاهداف كما أنها معادية للعلم والثقافة. خصوصا وأنها بوعي أوبدون وعي تروج لبيداغوجية دون أن تأخد معطيات المجتمع بعين الاعتبار(ولا يعني هدا أن التربية تخدم أليا المجتمع الدي تقوم فيه دلك انها كأية مؤسسة اجتماعية قد يقتصر دورها على المحافظة على العلاقات القائمة كماتحمل في طياتها تغييرا اجتماعيا جدريا أو غيرجدري. ثم ان العلاقات التربوية الاجتماعية من النوع الجدلي الدي تستلزم معرفته الاحاطةبالتناقضات القائمةفي المجتمع.)[6]

ادا كانت البيداغوجية الحديثة لا تغيب سؤال المعرفة من دائرة اهتمامها الرئيسي ولها مايكفي من الاسس المعرفية والعلمية في الغرب أما بالنسبة لنا فهناك الفجوة المعرفية العلمية والرقمية. مما سيؤدي بمغامرة الاسقاط التربوي الغربي على الواقع المغربي الى مغالطة تاريخية وكارثة معرفية تربوية (فالتفكير من داخل المحلي وحده اعادة انتاج للثقافة من دون ابداع وترديد للتراث من دون نقد ومحاولة بلوغ الكوني من دون تامل المحلي تهرب من مهمة المساهمة في التغيير واكتفاء بترديد الافكار من دون التزام بنشرها في اللغة التي تفهمها الاغلبية ومن دون ربطها بما تراه الاغلبية قضاياها ومشاكلهاوالحداثة

النقدية هي التي تقبل هدا الا نتماء المزدوج وهدا الجهد المضاعف »[7] نحن نعرف بأن الكثير من الهرج التربوي لاينفصل عن التحولات القانونية التشريعية والسياسية.التي عرفها المغرب من اجل اعادة التوافق التناقضي بين التحولات الاقتصادية التي فجرتها العولمة وأشكال الوعي الاجتماعي. فهل هو توافق يخدم الطفل والانسان والمجتمع المغربي أم أنه تقسيم جدبد للعمل والمعرفة بشعارات براقة خادعة تقول عكس ما تخفي. ولعل الواقع التربوي المغربي المتمثل في المدرسة قادر على اجراء اختبار الصحة.

الطفل المدرس بيئة التمدرس البنايات التجهيزات الاكتظاظ.....ولامشكلة واحدة مما دكرنامستها الاصلاحات في الصميم فقط انتعشت السوق بصدور الكتاب المدرسي الواحد / المتعدد. انه كتاب يتيم على المستوى المحلي لكنه متعدد على المستوى الوطني. لكن الفكر التربوي يتجنب هدا الواقع لأنه غارق في الطروحات النظرية الضيقة ، ولكن الاقتصار على تفسيرات اختزاليةجزئية هو تعبير عن حالة الفشل في فهم طبيعة الشمولية ، وارهاص بالعجز عن الحركة. دلك لأن المجتمع يتحرك في شموله بنية متلاحمة من الفكر والعقل المجتمعيين. عندما فكرت فرنسا في استعمار المغرب لم تلجأ الى قوتها العسكرية فحسب ، وانما شجعت الدراسات العلمية والاديولوجية للواقع المغربي وصار هدا التراث يعرف الأن بالسوسيولوجيا الكولونيالية منطلقا للسوسيولوجيا المغربية. صحيح أن الكثير ينقصنا لتأسيس مثل هده الدراسات والبحوث في الميدان التربوي وغيره في بلد يحتقر البحث العلمي حيث يشجع الرداءة ويهمش الكفاءة وينتصر للأقدمية محبطا ثقافة الانجاز. ولكن هدا لايبررالسطوعلى الفكر الغربي ، تحت دريعة حق الاستفادة من الفكر الانساني. نحن لانرمي من وراء هدا الكلام الى مهاجمة حق شرعية التحديث المجتمعي والتربوي. لكن رؤيتنا تنطلق من النقد الزدوج للدات والاخر على حد تعبير عبدالكبير الخطيبي. فما الدي يجعل من الصعب بروز محاول مثل التي قام بها معهد الارشاد التربوي الفرنسي ؟ كيف يمكن تعلم منهج نقدي علمي وتفكير عقلاني في واقع متخلف تسيطر فيه الخرافة والتفكير السحري؟ كيف يمكن بناء المعرفة والانطلاق من مشكلات ملموسة في واقع يحتقر العلم والمعرفة ويتخلى عن الادمغة في العراء؟ فادا تصفحنا مجموعة من الكتابات نجدها غارقة في النصية مثلما نجد عند محمد دريج ، عبد الكريم غريب ، الهاروشي. ..الى جانب الكثير من المقالات المنشورة بالمجلات التربوية. فهي تقدم سيلا عارما لتعاريف مختلفة للكفايات.دون ان تتسلح بالرؤيةالمنهجية في تمييز هده التعاريف وفقا لانشغال أصحابها ، فهناك فرق شاسع ونحن نطالع تعريفا للكفاية في اللسانيات عندالتشومسكي ، وتعريفا آخر في مجال تدبير الشغل أو الاقتصاد...فعدم الوعي بالخلفية الثقافية الحاضنة لمفهوم الكفاية هو الدي جعل كتابات بعض المغاربة ملتبسة وانعكس هدا التعامل السلفي مع نصوص الغرب على المدرس حيث وجد نفسه أمام تعاريف متباينة ختمها دليل الاستاد الخاص بالاجتماعيات بالقول « من الصعب اعطاء تعريف واحد متفق عليه للكفاية » هكدا تحولت الكفايات الى سؤال مدرسي فلسفي

تقليدي ما هي الفلسفة ؟ بمعنى ماهي الكفاية ؟ لنجد الجواب المدرسي الكلاسيكي لا يمكن أن نقدم تعريفا جامعا مانعا لمفهوم الكفاية. مادا لو تجرأنا بناء على الاساس العلمي والنظري لبيداغوجية الكفايات، وانطلاقا كدلك من واقعنا وحاولنا صياغة التعريف التالي «الكفاية هي التلازم البنيوي بين بنية التدريس وبنية التمدرس» نقصد ببنية التدريس المدرسة وبنياتها التربوية البناية ، البرامج والمناهج ، التشريع والقوانين المؤطرة ، المدرس المفتش ، النيابة ، المجالس التربوية والتدبيرية. ..أمابنية التمدرس فتتمثل في الواقع الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والايكولوجي الدي يعيش فيه الطفل الى جانب الحقوق التي يتمتع بها ...والمعنى البسيط الدي يمكن استخلاصه من هده الرؤية النظرية هو ان الكفاية تعني نوعا من التلازم البنيوي بين القدرة والممارسة فعندما نتحدث عن الممارسة فنحن نفترض جدليا القدرة النفسية الوجدانية والعقلية المعرفية التي تؤسس لهده الممارسة حيث من الصعب الحديث عن الكفايات في واقع ينحسر فيه الوجود الانساني الى المستوى النباتي في صراع من اجل لقمة العيش في صورة اجرائية بيولوجية وفق عقلية انفعالية داتية تعاني صعوبة ترميز تجربة حياتها والارتقاء الى مستوى التجريد في علاقتها بالواقع (بمعنى اننا نرفض من يعتبر جميع مشاكل المدرسة مشاكل نفسية_تربوية. وهكدا يقدم الالية النفسية التربوية كوسيلة جديدة لعلاج هده المشاكل وكونها جديدة فهي طبعا غير مكتملة والحكمة المضمرة في دلك التدبير انه عندماتكتمل هده الوسيلة النفسية_ التربوية لا يعود هناك أي مشكلة تربوية ولكن بما انها تشكو من بعض النواقص في الوقت الحاضر فليس من الغريب ادن ان نجد بعض الشوائب في مجتمع المدرسة)[8]. نحن نعتقد في تصور تنموي شامل والا فان البنيات التدريسية والتمدرسية المتخلفة ستتمكن من هضم الجديد واستعابه في سياق منطقها الخاص القاضي باعادة التكيف مع ما هو قائم وسائد(ولا ننتبه الى ان المنظومات القديمة التي تقف عائقا امامنا لم ترسخ لقيمتها المعرفية ولكن لانها تطابق اليات دهنية لا شعورية وان النسج على منوالها لن يكون سببا في زحزحتها بل دعما اضافيا للاليات التي رسختها)[9]هكدا نفهم الكفايات في شموليتها وديناميانها وجدليتها ممايطرح ضرورة هدا التلازم البنيوى. فادا كان الباحث الغربي – لندكر على سبيل المثال كاردنر _ قد استطاع بلورة نظريته من الواقع التعليمي التعلمي فما الدي يمنع خلق مثل هده المبادرات وخروج الباحث الاكاديمي المغربي من داخل اسوار الجامعة التي سيجت فكره وتصوراته وخلق علاقات وتواصل تفاعلي مع الواقع التعليمي الميداني – نقصد من يكتبون في مجال التربية –وتوسيع مجال اشتغاله انسجاما مع مبدأ تحويل المعرفة التربوية من الترجمة والاقتباس الى التفاعل مع واقع داتي علائقي واجتماعي (الا ان الاخطر في هدا قد يظل مستورا ممايتمثل في نقل المعارف عن الغرب بدون استعاب الفلسفات والاسس العلمية التي تقوم عليها دلك انه بدون مثل هدا الاستعاب يتعدر محاكمة هده المعارف وتقويمها وفرز الغث من السمين فيها. كما يتعدر استعاب المنطق الدي تقوم عليه والنموذج المعرفي الدي يؤطرها او يحدد افاقها ومخرجاتها كما قضاياها وطروحاتها ومنهجياتها وطرائق بحثها. ناخد معارف جاهزة الصنع بدون ان نعرف سر صناعتها ولدلك يظل تعاملنا معها سطحيا اجرائيا

محضا. (...) ولهدا نظل قاصرين عن امتلاكها وتطويرها ونقدها ونقضها وتوطينها. وتكون النتيجة اننا نطبق قوالب جاهزة مفصلة للمجتمعات الصناعية التي انتجتها لاحتياجاتها هي على واقعنا دي الخصائص والاحتياجات المغايرة تماما في بعض الاحيان. ولدلك يظل واقعنا مفلتا من سيطرتنا عليه وبالتالي تتعثر محاولات تسييره وتطويره وبالتالي انمائه.)[10] اتبثنا هدا النص لانه يلخص بشكل مكثف اشكالية غياب السؤال النقدي المؤسس للاستعاب والتجاوز فكريا وواقعيا. نحن نعرف ان المهمة جسيمة خصوصا وان شروط البحث العلمي هزيلة بالاضافةالى ان المسؤولين عن المجتمع والتعليم بشكل خاص الاكاديميات النيابات المؤسسات التعليمية وباقي الهيكلة الوزارية لا يتوفرون على القيمة المعرفية والعلمية يعيشون في نوع من الاسترخاء الثقافي حيث ينعدم فعل القراءة والبحث عندهم. ربما يفضلون راحة الكراسي على صداع الراس. هده المعطيات تقف في وجه الباحث الجاد وتجعل محاولته ومبادرته صعبة وشاقة. ولكن رغم هدا كله فسؤال التاسيس النقدي في مجال الفكر والثقافة يطرح نفسه بالحاح ومسؤولية. (وعلى الرغم من اقتناعي الكامل بالاهمية الجوهرية لنقد الفكر العربي السائد نقدا مفهوميا داخليا والارتفاع به من فكر ايديولوجي مثالي جامد يفتقد الموضوعية والتاريخية الى فكر نظري علمي نقدي متجدد الا انني ارى ان اشكالية الفكر العربي لن تحل ولاتحل في ملكوت الدهن وحده لانها ليست كامنة في الفكر وحده وانما هي كامنة كدالك في الواقع الموضوعي نفسه.)[11]

ثالثا :لماذا لم يدقوا جدران الخزان

كتابات كالجثث يخنقها الاستلاب والتبعية الكاملة ،أو الانغلاق على الذات والعداء للأجنبي،على المستوى الفكري الثقافي والتلهف على مستوى المنتجات المادية الاستهلاكية. كتابات تعيش المصير نفسه. وتعيد إنتاج المأساة البشعة التي تعرض لها رجال في الشمس. موت مجاني ينتهي عند أقرب مزبلة. (فليس المهم لمن نقرأ بل المهم كيف نقرأ وكيف نتتلمذ؟

وما الهدف من ذلك كله وهوا لبحت عن حل لتخلفنا وصياغة موضوعية لسؤال المستقبل الذي لا يمكن أن يصاغ إلا بمفردات نابعة من الشرط التاريخي الذي نعيشه، كالحلم بالمستقبل هو جنين الواقع المتعين وليس قفزا عليه بأي حال من الأحوال.).[21]قبل التفكير في المفاهيم والنظريات والمناهج الحديثة لابد من طرح أسئلة تخص الواقع الفكري والحياتي في علاقتهما المتفاعلة،هل حققنا ثورة فكرية. ومدى مساهمة هذه التحولات الفكرية في تقويض دعائم وأسس البنى والانتماءات التقليدية أم أن القبيلة،العائلة الممتدة ما تزال هي البنية المؤطرة والموجهة والمشكلة للعقول والمواقف والسلوكات، والتوجهات. عكس ما نجد عند الغرب حيث يسود النمط الرأسمالي والثقافة الليبرالية الفردانية كفكر وكعلاقات مجتمعية في العمل والمعاملات. ولا ننسى أن الغرب استطاع الانتقال من السلطة الشخصية التي تجعل نفسها محورا جاذبا ومستقطبا منه ينبع العطاء والرحمة.

الرعاية والحماية الأبوية، إلى سلطة المؤسسات التي تنظم و تؤطر المجتمع كما يعمل الأفراد على إغنائها، و الانخراط فيها بفاعلية و بمبادرة مستقلة تضبط العلاقات و التفاعلات (إنسان توجهه نظرة في الوجود تتمثل بالمعادلة التالية الفرد في قدراته وكفاءاته،العلاقات التعاقدية والوظيفية الانجاز وفاعلية الأداء،الحقوق والمنفعة والمكانة)[13]

فأين نحن من هذه الأطر الاجتماعية الثقافية والاقتصادية و السياسية حيث يعيش الإنسان ككائن إنساني مستقل منتج منجز حر ومبادر، وحين نتأمل عندنا واقع الطفل المغيب على المستوى التصور والواقع. فكيف بالمؤسسة التعليمة .

والمنظومة التربوية أن تجعل منه المحور والأساس لعملية التعلم / التعليم ، والأخطر من هذا كله هو قليلا ما ينتبه الفكر التربوي والفكر العربي عموما إلى موقع الأم كأرضية وقاعدة أساسية لكل تربية وتنشئة اجتماعية شاملة لأبعاد شخصية الطفل وضمان توازنه السوي وصحته النفسية الكاملة، ولكل نقاش، بحث أو ممارسة تروم إحداث نقلة نوعية في المجتمع. في جميع المجالات خاصة مجال التعليم والتنشئة المجتمعية، إذ غالبا ما تتحرر الكتابات العربية في الحديث عن الأم بدوافع عاطفية نفسية دون الذهاب في العمق والشمول، أما تناولها كامرأة فلا يبتعد إلا قليلا عن اعتبارها حيوانا أليفا،أو شرا لابد منه، كالجن والعفاريت التي ينبغي أخد الحيطة والحذر من سخطها وغدرها، خيانتها وانتقامها البشع، ولنا الآن أن نتساءل عن علاقة البيداغوجية الحديثة والفكر التربوي الغربي الحديث بنتاجات هذه الأم – أي أطفالها_الذين لا تقدمهم صفحة بيضاء للمدارس ، فهل مؤسساتنا التعليمة تكرس هده التمثلات والتصورات الثقافية حول الأم والطفل وتعمل على نشر هذا الموروث ؟ (أما إذا كان الإصلاح يروم مجتمعا بديلا ويتموقع في أفق بديل تكون المنظومة التربوية والتعليمية في اتجاه معاكس لجاذبية الموروث المتجاوز بكل أبعاده. بما في ذلك الثقافية والبيداغوجية يكون الفاعل التربوي فيها إلى حد ما يصارع ذاته وموروثه الثقافي والتربوي المعتاد.)[14]إن الوعي بهذه الحقيقة والتحدي يجعلنا نفكر في اتجاهات أخرى ووفق رؤى ومنظورات مختلفة لما هو سائد أي تجاوز الحلقة المفرغة من تتبع جديد الفكر الغربي بحيث نكتب وكأننا نعيش نفس السياق الاجتماعي والتاريخي، نحاول التقرب من الغرب كإعجاب وانبهار كآلية دفاعية مرضية تتسترعلى التخلف من خلال الاستهلاك المادي والرمزي القيمي، لكل ما ينتجه الغرب حفاظا على الحظوة والمكانة في العلاقة المهنية والعلمية المصطنعتين بعيدا عن الإسهام الحقيقي في تطور الفكر الإنساني أو على الأقل حسن استيعابه وتوطينه. إلى هذا الحد نزور تجربتنا الفكرية والوجودية الحياتية.(فلا ينبغي أن تخدعنا المظاهر ليس التكلم بالمصطلحات العلمية أو بالعبارات الأكثر عصرية في العلوم الاجتماعية أو اللسانية أو الفلسفية هو الأقرب إلى التجديد، يعني تجديد الرؤية وتعزيز للعقل وإنما قد يكون العكس هو الصحيح إذ غالبا ما يعكس هذا التحديث السطحي والشكلي استمرارا للموقف التقليدي، نعني موقف استنساخ الآخر و الاعتماد عليه

في التفكير،[15] وهذه الازدواجية لم تساعدنا في طرح المسائل والقضايا والإشكالات التي تعنينا كمجتمع مغاير، بل رسخت آلية في التفكير وذهنية انشطارية تسحرها المفاهيم والنظرة المستوردة بتماسكها العلمي المنطقي بعيدا عن هموم الواقع وقضايا ه. الحيوية والجدلية فتتحول الكتابات العربية إلى مجرد «حديث الكتب عن الكتب» كما قال محمد بنيس ونتناسى أن اقتباس المقولات الجاهزة يهدد بالاستلاب في المكان كما يقول الجابري [16] وماذا يمكن القول عن السلط القهرية في بنيات المجتمع الاجتماعية والثقافية. فالسلطة الأبوية الترغيبية والترهيبية هي السائدة في الأسرة العائلة القبيلة. المدرسة الدولة. ..حيت يرفض الكبار الاعتراف بنضج ورشد الأبناء. وإنسانية الأطفال والنساء. فالعقاب الزجر. العنف الجسدي والنفسي له نصية تراثية يسبغ عليها طابع القدسية الدينية كمرجعية أخلاقية تربوية في تنشئة الصغار وفق تواصل عمودي فوقي لايعترف بشرعية التساؤل أو السؤال. الذي يشكك في المصداقية المعرفية والعلمية لما يطرحه الكبار، الآباء. المسؤلون، المدرسون...

فكيف ستتعامل البيداغوجية الحديثة التي تنص على إشراك الطفل في الحوار، والنقاش. البناء المعرفي، تعلم التعلم اكتساب المنهجيات العلمية. حل المشكلات توليد مشكلات جديدة وتمرس على مهارات ذهنية كالتحليل التركيب النقد. الحكم العقلي،الاستنتاج،الاستقراء... كل هذا في علاقة مع مدرس لم يتم تكوينه وتأهيله أو إعادة تكوينه وتأهيله حتى يكون في مستوى المهام المطروحة عليه،وهو الأعزل في ساحة الولاء والمحسوبية وسيادة ثقافة الغش. حيث يتم تقويم الولاء في علاقته بالإدارة والإشراف التربوي بعيدا عن تقويم الأداء وتشجيع ثقافة الجهد والانجاز والإنتاج الأصيل.

مما يفتح الباب الواسع لحالات اليأس والإحباط إلى درجة العجز والاضطراب النفسي الانفعالي إن لم نقل تجذر الاكتئاب والغضب والعنف إضافة إلى وضعيات الانشطار

والازدواجية القريبة من حالات العصاب المرضي فأية علاقات تربوية بيداغوجية يمكن الحديث فيها بين المدرس والمتعلم.

بين طرفين مثقلين بالجراح وأشكال مختلفة من التهميش والإقصاء إلى درجة تحطيم الذات وتبخيسها مع إسقاط اللوم وتحميلها مسؤولية كل الهزائم والفشل المهني،الحياتي و المدرسي ولا تكف حرب المذكرات والإعلام المرئي والمكتوب عن تصيد حالات اغتصاب.عنف أو تحرش جنسي للتشهير بالمدرس وحشره في الزاوية الضيقة. الشيء الذي يجعله يستنجد بالموروث الديني لتبرير رسوبه المهني. الاجتماعي الاعتباري... كآلية دفاعية لضبط توازن مرحلي هش. والاحتماء بالماضي مع الاستسلام لثقافة الحظ والنحس او القدر المكتوب وتقسيم الأرزاق في صراع مع لقمة العيش. مع قتل كل الطموح في تحقيق الذات أو متابعة مشروعها الحياتي.مما يجعل اعتباره.احترامه وتقديره بل ومكانته المادية والاجتماعية مرهونة بحظه في مباراة مهنية قد تجعله في فئة المحظوظين أو المنحوسين وهو العارف أكثر من

غيره بهشاشة النظريات المستوردة سواء التي قدمت على شكل كتب، مقالات في مجلات والتي تم تزيين بها مقدمات الكتب المدرسية.فأصحابها لم يكلفوا أنفسهم عناء البحث والتمثل الأصيل. فأغلب الكتب خبطت بشكل عشوائي بين نتف الكفايات،الفارقية. الوضعية المسألة. الإدماج... مسجلة أروع الوصفات الغامضة المبتورة السياق،الرؤية،المنهج... فكيف لهذا القليل السائد بعلاتة ان يسمح بالتمييز والتصنيف والتفيء بين نساء ورجال التعليم. وتأتي معطيات أخرى متمثلة في الإرث الثقيل لمهنة التدريس وأشكال الوعي التي تؤطرها لتزيد الطين بلة. مع ان تحولات الواقع تضغط في اتجاه الاستهلاك والتملك والنجاح بأسهل وأسرع الطرق وبأي ثمن. ونحن نعرف أن الوصمة السيئة إذا رافقت الطفل. المدرس أو الإنسان بصفة عامة تحكم عليه بالإقصاء. العزل.الجنوح أو الجنون وهناك إحصاءات في هذا الشأن لمن يحب الارقام. اما وصمة الحظ فهي تشرع للغش وغياب الجهد الدؤوب والمثابرة التي تبني الوعي والانسان والمجتمع. ان استحضارنا لشرطنا الاجتماعي الاقتصادي. الثقافي. التاريخي يجعلنا ندرك انه لو (حصل ان احد المجتمعات طبق على نفسه حلول المجتمعات الاخرى لمشاكلها لخلق لنفسه مشاكل جديدة اكبر واعوص من المشاكل التي كان يريد حلها (...) إن أصالة الثقافة والعقل في مجتمع من المجتمعات تتجسد في قدرتها على تقديم حلول جديدة ومبتدعة مستمدة من أوضاع مجتمعاتها ومشاغلها وليست مستقاة من أوضاع اخرى اوقائمة على مجرد الاقتداء بها والنسخ عنها) [17] فواقعنا بجميع مكوناته ومستوياته يعيش هذا التناقض الصارخ بين مايطرح من أفكار تجزيئية. سطحية. انفعالية وحداثية المظهر وبين المقومات والامكانات والارادة التي تسند إنجاح الإصلاح أو التحول أو التغيير(فقد تعددت محاولات التشخيص وتعددت معها وصفات العلاج واستنفذ الخطاب التربوي جميع مفردات قاموس التغيير من تجويد وتجديد وتطوير واصلاح وتثوير وهكذا ظل الامر على ماهو عليه اصلاح تلو إصلاح ولاصلاح)[18] مما جعل الاسئلة تتناسل حول سر الفشل خصوصا ونحن نعرف عدم الانسجام القطاعي في عملية النمو والاصلاح. فلم تساعد هذه المقاربة التجزيئية على تحقيق التكامل(لقد ادت هذه المنهجية على مستوى الاعمال الى تفاوت بين وثيرات الإصلاحات القطاعية والمجالية مما جعل الإصلاح التربوي في كثير من الاحيان. معزولا بذاته وغير مساير من طرق القطاعات الاخرى. خصوصا في المناطق القروية التي مازالت تفتقد إلى البنيات التحتية) [19] نحن أمام واقع اشرنا إلى كثير من سلبياته المحبطة إلى درجة النكوص.المرضي. والذي لا يشجع ويعزز الكفاءات وينمي بعدي الانجاز والجهد في الأداء كثقافة مجتمعية بديلة قادرة على ترسيخ التفكير الايجابي في تجسير الهوة (والمسافة بين القيم والمبادئ والاختيارات التربوية للميثاق الوطني من جهة والبرامج من جهة أخرى كما أن هناك مسافة بين البرامج وبين الدروس الميدانية) [20]لكن للأسف تحولت هذه المسافة إلى مسالة سلبية بسبب الموروث الاجتماعي البطريكي_ كعلاقات تسلطية في الثقافة والمناهج والطرق والعلاقات الإدارية إلى جانب تراتبية قهرية اقتصادية واجتماعية مولدة للفقر والانحسار المادي والمعنوي. مما يؤكد ضرورة الرؤية الشمولية والمنظور المختلف الجديد من أجل الاستيعاب

والتجاوز في أفق خلق وتهيئ شروط القطيعة فكريا وحياتيا. هكذا نفهم بأن الكفايات ليست مجرد أفكار يتم تسويقها لكنها وليدة سيرورة اجتماعية ارتبطت بتحولات عميقة لا نجد لها مثيلا في مجتمعنا وبالتالي فهي ليست بضاعة للاستيراد ولا يمكن التعامل معها بعقلية المهرب.فقد آن الأوان للوعي بخطورة(الأسلوب المتبع في ملء الفراغ التربوي بالاستعارة من الغرب بأخذ الفكرة ونقضيها دون أن يكون لخصوصيتنا دور كبير ولم نقف منها موقفا نقديا ولم نقرا الشروط الاجتماعية التي احتضنت ولادتها.) [21]

الهوامش

1) شوقي جلال اليسار العربي وسوسيولوجيا الفشل ـ عالم الفكر ع 3و4 س 1998 ص 99

2) محمد علي الكبسي –الحداثة التراث السلطة – مجلة الوحدة ـ العرب والتنوير ـ ع 81 س1991 ص31

3) عبد الله 193العروي التحديث والديمقراطية افاق اتحاد كتاب المغرب ع 3و4 س 1992 ص 163

4) شوقي جلال اليسار العربي وسوسيولوجيا الفشل ص

5) محمد دريج الكفايات ص 13 ـ 2001

6)احمد صيداوي –جميل ابراهيم ـ نخلة وهبة ـ الانماء التربوي ط 2 س 1982 ص 64

7)محمد الحداد مواقف من اجل التنوير دار الطليعة بيروت ط1 س2005ص 113

8)wagner k et warck r les desherites de l'ecole Paris Maspro1973 p 149

9)محمد الحداد مواقف من اجل التنوير ص26

10)مصطفى حجازي الانسان المهدور المركز الثقافي العربي ط1س2005ص178

11 محمود امين العالم الفكر العربي بين النظرية والتطبيق مجلة عالم الفكر ع3و4س1998ص373

12 ـ جابر عصفورتعليق : عالم الفكر ع 3 و4س1998 ص447

13 ـ مصطفى حجازي. علم النفس والعولمة ط7س2001 ص20

14 ـ المنتدى الوطني للاصلاح :المكتسبات والافق يوليوز2005ط2006 ص 38

15 ـ برهان غليون: العقلانية نقد العقل ملاحظات منهجته الوحدة ع51 س1988 ص 91

16 ـ كلام محمد بنيس: ومحمد عابد الجابري ضمن علم النفس والعولمة د.مصطفى حجازي ص: 25

17 ـ برهان غليون : نفس المرجع السابق ص: 27

18 ـ نبيل علي : الثقافة العربية وعصر المعلومات مجلة عالم المعرفة ع 276 س2001 ص292

19 ـ المنتدى الوطني للاصلاح : المكتسبات والافق ص38

20 ـ المنتدى الوطني للاصلاح : المكتسبات والافق ص99

21 ـ نبيل علي : الثقافة العربية وعصر المعلومات عالم المعرفة ص 295

• Marquer comme lu(s)• Marquer comme non lu(s)• Supprimer• Courrier indésirable• Pas indésirable• Imprimer• Afficher la source du message- Afficher le message complet